

إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب ❁

محمد / سعيد فكرة

عميد كلية العلوم الاجتماعية

والعلوم الإسلامية . باتنة -

المقدمة:

الحمد لله الذي أفاض على قلوب العارفين به أنوار هدايته ومنح الربانيين مفتاح خزائن رحمته و الصلاة و السلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين
أما بعد :

البحث في تحديد إشكالية الملتقى الموسوم ب/

- الإسلام والغرب تنازع أم تعايش -

تستطرده مجموعة من التساؤلات الجوهرية الصالحة لصياغة الإشكالية المطروحة للمعالجة، والسؤال المطروح المحوري المكون لإشكالية الملتقى يتمثل في الخلفية التاريخية للعلاقة بين الإسلام والغرب .

ما حقيقة هذه العلاقة وجوهرها ؟ هل هي علاقة تنوع واختلاف أو هي علاقة تنازع وتضاد ؟ ما حقيقة هذا التواصل الحضاري بينهما ؟ هل هو تواصل إيجابي أو سلبي ؟ ما حقيقة الدعاوى المتكررة والمنادية بصراع الحضارات ؟ هل لها أسس علمية وواقعية أم هي وهمية مخالفة للواقع ؟ وما سبيل تقويم العلاقة بين الإسلام والغرب في ظل المتغيرات الدولية ؟ ما هو الموقف المتزن من الدول الإسلامية والأوروبية إزاء هذه التحديات والتهم الملتصقة بالإسلام والمسلمين ؟



إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب

ماهي طبيعة التصادم المفترض بين الإسلام والغرب ؟ وماهي معالم المشروع الحضاري المنشود لاصلاح ما انكسر من علاقات بين الإسلام والغرب ؟ وماهي الأرضية اللازمة لتفعيل التواصل الحضاري بين الإسلام والغرب في ظل التحديات المعاصرة ؟ في ظل هذه الأسئلة يأتي الملتقى ليجيب عن بعض هذه الإشكالات الجوهرية في بحوث أكاديمية متنوعة.

أولاً : تحديد المفاهيم

إن جوهر التأزم في العلاقات القائمة بين الثنائية تكمن في تقديرنا في سوء فهم لجوهر المفاهيم الاصطلاحية المكونة لحقيقة العلاقة بينهما من أجل ذلك يستوجب منهج البحث دراسة حقيقية للإسلام وأبعاده الحضارية، وحقيقة الغرب وأبعاده الحضارية ؟ فالبحث عن جوهر المصطلحات له بعده الدلالي الذي يدفع التأزم المحتمل بين المصطلحين الإسلام والغرب ويحدد نوع العلاقة بينهما. فالإسلام بتعريفه العام دين وعبادة وحضارة يدعو إلى المبادئ العليا السامية في ضوء المقاصد الشرعية.

والغرب بثقافته الحضارية يدعو إلى المبادئ العليا السامية في ضوء مقاصد الدين المسيحي، فالقاسم المشترك بينهما هو تحقيق المبادئ السامية وهو قاسم يساعد على التلاقي والتلاحق والتعاون. نعم فجوهر المصطلحين هو هذا، لا الذي يضعه الخصوم من تشويه للإسلام ونعته بصفات لا تليق به، وفي المقابل وصف الغرب بأنه الحضارة العادلة التي تحقق الازدهار والنمو والتعايش السلمي.

يجب أن يقف الخصم عند حقيقة وجوهر الإسلام في جانبيه النظري والتطبيقي، كما يجب أن يقف عند حقيقة الغرب وجوهره في جانبيه النظري والتطبيقي وبهذا يدفع التصادم المحتمل ويتحقق التعايش المأمول.



ثانياً: حقيقة العلاقة

لاشك أن الاعتداءات الإرهابية والأحداث المأسوية المتكررة في العالم فتحت الباب للجدال حول قضية جدلية ثنائية هي:

الإسلام والغرب، التعايش أم التصادم صراع الحضارات، أزمة الحداثة في المجتمعات العربية والإسلامية، الأصولية من ناحية والعولمة من ناحية ثانية.

وهي قضايا على اختلاف عناوينها إلا أنها تدخل تحت عنوان محوري لهذا الملتقى وهو الإسلام والغرب وجدلية العلاقة بينهما سواء أكان هذا من الناحية السياسية أم التاريخية أم الثقافية والحضارية بشكل عام.

وهي قضية جادة وليست بالجديدة فقد عايشناها على مدى أكثر من قرنين من الزمان وبالتحديد منذ أواخر القرن (18) عقب الحملات المتكررة على العالم العربي والإسلامي إبان فترة الاستعمار. الأمر الذي فرض ضرورة الاحتكاك المباشر بين الحضارتين الإسلام والغرب - تأثيراً وتأثراً.

ولئن كانت الأبعاد الحضارية لكل حضارة تصبوا إلى تفعيل التواصل الحضاري القائم على التفاعل الإيجابي والواعي بين الحضارتين دون إغفال للخصوصيات الثقافية، إلا أن معضلة العلاقة وجدليتها لم تحل نهائياً، بل اكتسبت أبعاداً جديدة زادت من تعقيداتها، كان أخطرها هو تداخل العوامل السياسية مع مثلتها الثقافية والحضارية والتاريخية، ثم طغيان الأولى على الأخيرة لعقود تزامنت مع المشروع التحديثي نفسه امتدت إلى وقتنا الراهن، ولقد تجسدت البداية فيما يمكن تسميته . بالخرقة التي هدمت العلاقة - والتي خلفتها ظاهرة الاستعمار الغربي التي سادت المنطقة العربية لعقود من الزمان وكانت كفيلاً بخلق صدمتين هما:



1- خلق مرارة مازالت ماثلة في الذاكرة نتج عنها رفض السياسات الغربية الاستعمارية وانسحبت الكراهية السياسية على الموقف من الثقافة والحضارة للغرب.
2- عرقلت عمليات توطيد العلاقة وتفعيل التواصل الحضاري بين الإسلام والغرب. ولعل ما زاد الأمر تعقيدا هو تزامن هذه المرحلة القاسية مع ميلاد دولة إسرائيل بدعم غربي متحيز، وتفجر أعنف صراع عرفته المنطقة وهو الصراع العربي الإسرائيلي بكل تداعياته الطويلة.

ومرة أخرى تتعقد العلاقة مع الغرب بحكم حرب الخليج بكل تداعياته، وما ترتب عليه من آثار سيئة دولية جراء إعلان الولايات المتحدة الأمريكية للحرب على الإرهاب في غياب اتفاق المجتمع الدولي على مفهوم ظاهرة الإرهاب، وزاد الأمر تعقيدا هو ذلكم الغزو على العراق، وإعلان الولايات المتحدة الأمريكية معالم هذا الغزو وأنه: غزو صليبي، ينطلق من فرضية صراع أو صدام الحضارات.

ثالثا: أسباب تأزم العلاقة بين الإسلام والغرب

وللتفصيل فإنه ثمة اعتبارات يجب الوقوف عندها زادت في تعقيد العلاقة بين الإسلام والغرب وهي:

1. وصف الإسلام بأنه دين إرهابي، وأن كل مسلم ملتزم إرهابي، فتولد عن هذا تدهور للعلاقة بين البلدان الإسلامية والغرب بل تجاوز الأمر إلى إعلان الحرب على الإسلام السياسي بشكل عام والجماعات الإسلامية بشكل خاص، دون التمييز بين ما هو التزام حقيقي وبين ما هو ادعاء، بين ما هو إسلامي وغير إسلامي، بين ما هو صحيح وما هو باطل.....

2. السياسة الغربية الأمريكية وتعاملها مع ظاهرة الإسلام السياسي وبعض الجماعات الإسلامية. فقد عمدت السياسة الأمريكية طابعا عمليا لا ينظر إلا إلى المصالح



د. سعيد فكرة

السريعة الآنية، حيث استخدمت بعض الجماعات الإسلامية لتحقيق أهدافها إبان الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفياتي وكان النموذج الصارخ لذلك هو أفغانستان، وانعكست هذه السياسة على العلاقة مع الغرب بسبب استمرار الصراع العربي الإسرائيلي ثم ما تداعى بعد حرب الخليج الثالثة من استهتار للشرعيات الدولية وغزو العراق بدون مراعاة أدنى شعور للأنظمة العربية والإسلامية وكذا شعوبها. فنتج عن هذه الانعكاسات تجسيد فكرة عدم تفعيل التواصل الحضاري والثقافي بين الإسلام والغرب.

3. أحداث 11 سبتمبر وما تولد عنها من تنعيت الإسلام والمسلمين بالإرهاب أفرز انعكاسات جدّ خطيرة في الأوساط العالمية والإقليمية خاصة بسبب سوء التعامل مع المسلمين في الغرب زاد هذا تأزما في العلاقة بين الإسلام والغرب.

4. فرضية صدام الحضارات

وما أفرزته بعض الطروحات الفكرية الأكاديمية في بعض الدوائر الأمريكية والتي ساهمت في تعقيد إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب خاصة من الناحية الحضارية والثقافية، وفي مقدمتها " فرضية صراع الحضارات " التي قال بها عالم السياسة الأمريكي صموئيل هنتجتون والتي شاعت منذ انتهاء الحرب الباردة في أوائل التسعينات. عندما طرح صاحبها الفكرة بشكل مبكر في مقال له بمجلة " شئون خارجية " الأمريكية " فورين أفيرز " سنة 1993 ثم طورها في كتاب حول الموضوع نفسه سنة 1997. ومفادها: أن الحرب ستأخذ شكل التصادم بين الخصوصيات الحضارية والثقافية بشكل عام وأنها ستحل محل الحدود السياسية والإيديولوجية للحرب الباردة. ويورد في مقال آخر تحت عنوان " الغرب متفردا وليس عالميا " عدد من العوامل الأساسية التي يراها حقيقة أمام التفاعل الحضاري مع الغرب، وفي مقدمتها: الحداثة



بمعناها الشامل " الدين، المسيحية الكاثوليكية"، واللغة، والعلمانية " التي أسهمت بشكل مباشر في إثراء المبادئ العامة للإنسانية، وأن التقدم في نمو " المؤسسة "وعنصر اللامركزية الذي عرفته البلاد الأوروبية منذ القرن التاسع لحقوق الأفراد، والحريات العامة والخاصة، وهي مبادئ ظهرت ونمت منذ القرنين الرابع عشر والخامس عشر حتى تبلورت قواعدها وتطبيقاتها خلال القرنين الماضيين.

وفي المقابل فإن الحضارات الأخرى الأسيوية والإسلامية وغيرها غلبت " الثقافة الجمعية " التي تقف حائلا دون ترسيخ مفهوم الحقوق والحريات كما هو سائد في المجتمعات الغربية، ولا شك أن هنتجتون يركز هنا كما في أطروحته صدام الحضارات على البعد الثقافي حيث يقلل من أهمية التنوع والتعدد داخل كل حضارة وما يؤدي ذلك إلى تفعيل التواصل الحضاري من تحولات وتأثير وتأثر.

فهو يقبل التنوع في حدود أضيق مما يشهد به التاريخ من قابلية الثقافات للتحويل والتطور، وربما بهذا السبب أيضا نجده يتراجع عن تفاؤله بشأن انتشار الديمقراطية على نطاق واسع من العالم، وهو ما صرح به في كتابه الشهير " الموجة الثالثة " للتحويل الديمقراطي في أواخر القرن العشرين، حيث يقرر بأن المفاهيم الجوهرية للديمقراطية تجد أرضيتها في الثقافة الغربية وبنسبة ضئيلة.

5. فوضى العولمة

التي تعقد وبصورة أكثر حدة جدلية العلاقة بين الإسلام والغرب بما تفرضه من نظرية " القطب الواحد " دون أدنى مراعاة للخصوصيات العريقة لكل أمة. وهو أمر يظل بالغ الخطورة حيث يعمد إلى تهيمش معالم الحضارات في سبيل تحقيق هدف القطب الواحد.



وبهذا تكون العولمة بفوضويتها تزيد في توسيع الهوة بين الإسلام والغرب وتزيد من سلبية العلاقة بين الإسلام والغرب.

رابعاً: الإسلام والغرب في ميزان الواقع

وإذا كانت لهذه العوامل الأثر السلبي في تعقيد العلاقة بين الإسلام والغرب، نتج عنه تعينت كل منهما بأوصاف صادقة وكاذبة، تعينت الإسلام بما هو ليس منه، بل هو منه براء، تعينته بالعنف والإكراه، والقسوة والإرهاب، والتخلف والفوضى، والرجعية والأصولية بما تحمله هذه الكلمة من معان... وتعينت الغرب بما هو عكس ذلك. نتج عن هذا تأزم العلاقة بين الإسلام والغرب بل تدهورها إلى حد العداء والكراهة. غير أن استقرار التاريخ يعكس الصورة الحقيقية لحقيقة الإسلام وحقيقة الغرب. تجسد هذا في صورتين متلازمتين في تاريخ البشرية:

- 1- صورة بيت المقدس حين استولى عليه الصليبيون في أواخر القرن الحادي عشر.
 - 2- وصورته حين استعاده أهله في أواخر القرن الثاني عشر.
- ففي الصورة الأولى: نجد الصليبيين يخربون ويدمرون ويقتلون سكان المدينة ويذبحونهم، حتى ليعترف بعضهم أنهم وصلوا إلى مسجد المدينة في بحر من الدماء بلغ ركبتيه. وفي الصورة الثانية: نجد صلاح الدين يحمي الأرواح، ويبجل رجال الدين ويكرم الحرائر والنساء، ويصون المباني المقدسة بل يرممها ويأمر بإصلاحها. وفي الصورة الأولى: وحشية وقسوة وإرهاب وعنف. وفي الصورة الثانية: سماحة ونبل وكرم. وبهذا شهد المؤرخون غربيهم قبل شرقيهم، يقول المؤرخ الإنجليزي المعاصر "رانسمان Runciman" "كان المنتصرون معقولين وإنسانيين، فعلى حين نجد الفرنج عند استيلائهم على المدينة منذ ثمانية وثمانين (88) عاماً يخوضون في دماء



إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب

ضحايهم، لا نجد في هذه المدة بناء نهب، ولا إنسانا أصابه أذى، ونرى الحراس تنفيذاً لأوامر صلاح الدين، منبثين لحراسة الطرق والأبواب وحماية المسيحيين من أي اعتداء قد يصيبهم⁽¹⁾.

وفي تاريخ الغرب مساوى لا يحصيها عدد، والتاريخ يعيد نفسه في انتفاضة فلسطين وحرب الخليج الثالثة المتمثلة في غزو العراق، وما طالعنا به القنوات الفضائية الحرة من تدمير وقتل الأبرياء لا حول لهم ولا قوة، بل تتابع الأمر لتسهيل عملية النهب والسرقه والتدمير والتقتيل والإهانة أمام حراس التحالف الأنجلو أمريكي، تنفيذاً لأوامر قادتهم، منبثين لحراسة عملية النهب والسرقه والتخريب... دون أدنى حركة إنسانية رافضة للظلم والتخريب.

نعم هذه هي الصورة الواقعية الحقيقية لحضارة الغرب التي لا تراعي أدنى شعور لإنسانية الإنسان رغم الرفض العالمي المنتشر في أفاصي بلاد العالم حتى في قلب أمريكا وإنجلترا. وشتان بين هذا وبين أوامر صلاح الدين الأخلاقية المستمدة من خطة الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يودع جيش أسامة بن زيد حيث يقول: " يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني:

1. لا تخونوا ولا تغلّوا.
2. ولا تغدروا ولا تمثلوا.
3. ولا تقتلوا طفلاً صغيراً.
4. ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة.
5. ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه.
6. ولا تقطعوا شجرة مثمرة.
7. ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلاً لمأكلة.



8 . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له .

9- وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها .

10- وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا " اندفعوا باسم الله " (2) .

هذه هي تعاليم الإسلام في التعامل مع واقع الحرب، أين هي من الحضارة المعاصرة الغربية التي لا تراعي أدنى اعتبارات حضارية أو إنسانية إلا مصالح النفط ودولة إسرائيل العالمية المنزومة.

وكل هذا عبارة عن إفرازات لوقائع تاريخية معاشه هدفها طمس تفعيل التواصل الحضاري بين الإسلام والغرب بل طمس معلم التأثير الإيجابي الكائن بين الإسلام والغرب منذ عهد سابقة دون مرء..

بل السعي إلى تبني فرضية " صدام الحضارات رغم أنها مناقضة لمسار تاريخي إيجابي ثابت بين الإسلام والغرب تمثل في تفعيل وإيجابية العلاقة بين الإسلام والغرب رغم تباين المراحل التاريخية.

إن المسار التاريخي لفلسفة علاقة الإسلام والغرب، مرت بمرحلتين ستظل لكل منهما آثاره ودلالته القوية ماضيا وحاضرا.

المرحلة الأولى: العصر الوسيط في أوروبا، حيث كان أهل أوروبا يعيشون في فوضى عارمة وصراع حاد بين الإمبراطورية والكنيسة، أي قبل دخولها عصر النهضة منذ القرنين السادس عشر والسابع عشر (3) .



وفي المقابل كان المسلمون في هذا العصر، ينعمون فيه بظل الحضارة الإسلامية التي أفاضت عليهم كل أنواع الخير ووقتتهم مفسد الشر وأبعدتهم عن مواقع الفتن. وقد سجلت هذه الفترة أهم لحظات التفاعل الحضاري بين الجانبين. المرحلة الثانية: تبدأ بمرحلة الوعي العربي الحديث بالغرب بسبب الغزوات المتكررة على العالم العربي والإسلامي في القرن (18) الثامن عشر والتاسع عشر، ومحاولة إقامة دولة قومية حديثة وبروز أهم الحركات الإصلاحية برموزها المختلفة. كان لهذه وغيرها فرصة لاحتكاك الحضارتين، وكان بذلك بداية أهم إشكالية في هذا العصر وهي: علاقة الإسلام بالغرب.

المرحلة الأولى: مرحلة التواصل الحضاري وتأثر الحضارة الأوروبية بالحضارة الإسلامية وهذه المرحلة تسمى مرحلة التعارف والتعاون والتواصل الحضاري رغم كل ما يمكن اعتباره عقبة تحول دون ذلك: وليس أدل على ذلك من التبادل الثقافي والحضاري الذي تناقلته الأجيال وفق قنوات شعاعية كانت بمثابة الركائز الأساسية للتواصل الحضاري بين الإسلام والغرب.

نعم منذ العقد الأخير من القرن الأول الهجري بدأ شعاع الحضارة الإسلامية يصل إلى أوروبا عن طريق نوافذ كان لها الفضل في تبليغ ونشر الحضارة الإسلامية في أوروبا. ولم تكن الحضارة الأوروبية في منى عن الاستفادة من الحضارة الإسلامية وتأثرها بها. فقد عبر المسلمون إلى الأندلس في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وواصلوا فتوحهم في أوروبا حتى استولوا على شبه جزيرة إيبيريا وجنوب فرنسا، ثم استمروا في فتوحهم حتى استولوا على جزر البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا ونشروا دينهم فيما فتحوه من البلاد.



د. سعيد فكرة

وكانت أوروبا في - ذلك الوقت - خلوا من كل مظاهر الحضارة بعد أن تمكنت القبائل المتبريرة من القضاء على الدولة الرومانية الغربية واحتلال الأقاليم التي كانت تخضع لحكمها. وعلى الرغم من أن هذه القبائل دانت بالمسيحية فإنها لم تتقدم تقدا حضاريا يستحق الذكر بسبب توالي مجيء موجات جديدة منهم وغلبة الروح العسكري عليهم وقلة المرونة العقلية لديهم مما جعلهم متخلفين عن ركب الحضارة والمدنية يعيشون في ظلال الجهالة والهمجية.

وقد نشر المسلمون في كل بقعة دخولها من أوروبا لواء الأمن ونور المعرفة وأقاموا فيها قواعد حكم عادل يسوى بين الجميع في المعاملة ويكفل الحرية لكل فرد في المجتمع ويعمل للصالح العام ويمقت الأنانية والانتهازية.

وتاريخ إسبانيا العربية المسلمة صحيفة مشرقة من صحائف التاريخ الإنساني وسجل حافل بالأمجاد ذاخر بمختلف نواحي الحضارة التي كانت مركز إشعاع هائل للحضارة الأوروبية. وقد كان المجتمع في الأندلس بعد الفتح الإسلامي يتألف من العرب الفاتحين ومن الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام وقد عرفوا باسم "المسالمة" ومن الأسبان الذين استمروا على المسيحية وقد أطلق عليهم اسم "العجم" وأصبحوا أهل ذمة يدفعون الجزية للمسلمين ويعيشون آمنين في وطنهم ويتمتعون بالحرية الدينية والتسامح الذي امتاز به المسلمون في معاملتهم لمخالفهم في الدين.

وكان من بين هؤلاء جماعة عاشروا العرب وتعلموا لغتهم ودرسوا علومهم وقلدوهم في عاداتهم وأسلوب معيشتهم وأطلق على هذه الطائفة اسم "المستعمرين"⁽⁴⁾. وعن طريق هؤلاء الذين جمعوا بين معرفة اللغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة نقلت حضارة العرب إلى الإمارات الشمالية في شبه جزيرة أيبيريا التي اتخذها المسيحيون معقلا لهم واعتصموا بجبالها ولم يدخلوا في طاعة المسلمين.



وبعد جيل من الفتح تكون من المسلمين العرب والأسبان عنصر جديد عرف " بالمولدين " وهم الذين ولدوا من آباء عرب وأمهات إسبانيات وعلى مرّ الزمن كثر عدد هؤلاء حتى أصبحوا يكونون أغلب سكان الأندلس.

وقد وصلت الحضارة العربية في الأندلس إلى درجة عالية من الازدهار وبخاصة في القرن الرابع الهجري حيث كانت مدينة قرطبة العاصمة تضم مائة وثلاثة عشر ألف مسكن وواحد وعشرين ضاحية وكان بها سبعون دارا للكتب وعدد لا يحصى كثرة من الحوانيت كما كان بها كثير من المساجد وكان أغلب شوارعها مرصوفا ومضاء⁽⁵⁾ وكانت بقية المدن صورة مصغرة من العاصمة.

وقل هذا في محيط الزراعة⁽⁶⁾. وفي ميدان الصناعة ازدهرت صناعة النسيج والزجاج والنحاس والخزف والسيوف وكثر استخراج الذهب والفضة والحديد والرصاص وغيره من المعادن⁽⁷⁾.

ولقد ازدهرت الحياة الثقافية في الأندلس وبخاصة في عهد الحكم الثاني (350.366هـ) وكانت جامعة قرطبة التي أنشأها والده عبد الرحمن الناصر في المسجد الجامع يفيد إليها الطلاب من جميع أنحاء الأندلس ومن أفريقيا وأوروبا. وقد استدعى الحكم بعض الأساتذة المشهورين من الشرق ليحاضروا فيها ومن بينهم العالم اللغوي المشهور أبو علي القالي مؤلف كتاب الأمالي⁽⁸⁾ وكان المؤرخ الأندلسي ابن القوطية يدرس النحو بها.

وكان الحكم مغرما باقتناء الكتب فكان يكلف رجاله بالبحث عن المخطوطات في حوانيت الإسكندرية ودمشق وبغداد وشرائها ونسخها وبهذه الطريقة تمكن من جمع أربعمائة ألف مجلد⁽⁹⁾ وكان يطلع بنفسه على بعض هذه المخطوطات ويكتب ملاحظات في هوامشها مما جعل لها قيمة كبيرة في نظر العلماء المتأخرين. وقد أراد أن



د. سعيد فكرة

يحصل على النسخة الأولى لكتاب الأغاني التي كتبها أبو الفرج الأصفهاني بنفسه - وهو من سلالة الأمويين - وكان يقيم إذا ذاك بالعراق فبعث إليه بألف دينار ثمنا لها⁽¹⁰⁾. وكان المسيحيون الأسبان الذين هاجروا إلى كثير من بلاد أوروبا قد أشادوا بالعرب وشرائعهم وحضارتهم وثقافتهم وبالعمران الذي عم البلاد الأسبانية على أيديهم فنشروا بذلك - من حيث لا يقصدون - دعاية طيبة للمسلمين في أوروبا ونبهوا أذهان أهلها إلى النهضة الحضارية التي قام بها المسلمون في أسبانيا.

وكان هؤلاء المهاجرون قد هرعوا في هجرتهم خوفا على أنفسهم من بطش المسلمين بهم من غير أن ينتظروا ما سيكون منهم ولكنهم لم يلبثوا أن ندموا على هجر بلادهم حين علموا من مواطنيهم الذين لم يهاجروا مثلهم أن المسلمين يحسنون جوارهم ويطلقون لهم الحرية في أداء شعائر دينهم ويعاملونهم بالحسنى وينشرون العدل والأمن في سائر البلاد وأنهم حولوا أسبانيا إلى مروج خضراء وجنات فيحاء⁽¹¹⁾.

هذه الدعاية غير المقصودة التي نشرها المهاجرون الأسبان في أكثر بقاع أوروبا جعلت أهلها يتطلعون للوقوف على هذه النهضة الحضارية التي وصلت أخبارها إليهم وكان أسبق الأوروبيين إلى ذلك الملك فيليب البافاري حيث بعث إلى الأندلس يرجو الأمير الأموي هشاما الأول (172.180 هـ) يرجوه أن يسمح له بإيفاد بعثة إلى قرطبة لدراسة أنظمة الأندلس وثقافتها ومشاهدة أوجه النشاط بها فقبل الأمير رجاءه وأرسل الملك الجرمانى وفدا إلى الأندلس برئاسة وزيره الأول " ويلميين " الذي أطلق عليه الأندلسيون اسم " وليم الأمين " لأنه تحرى الأمانة في نقل ما رآه من مظاهر نهضة بلادهم إلى الملك. وقد أشار الوزير على الملك بالاستمرار في إرسال البعثات العلمية لاقتباس ما يفيد البلاد من فنون الحضارة العربية والإسلامية⁽¹²⁾.



وقد توالى البعثات على الأندلس بعد ذلك وفي أوائل القرن الخامس الهجري أرسل جورج الثاني ملك إنجلترا ابنة أخيه الأميرة "دوبانت" على رأس بعثة من ثمان عشرة فتاة من بنات الأمراء و الأعيان إلى أشبيلية بمرافقة النبيل "سفليك" رئيس موظفي القصر الملكي وأرسل معه كتابا إلى الخليفة هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس جاء بعد الديباجة "وقد سمعنا عن الرقى العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج من هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة. وقد أرسلنا ابنة شقيقتنا الأميرة "دوبانت" على رأس بعثة من بنات الأشراف الإنجليز لتتشرف بلشم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتهما موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وحذب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن وقد أرفقت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع "جورج".

وقد ردّ الخليفة هشام الثالث على ملك إنجلترا برسالة جاء فيها "لقد اطلعت على التماسكم فوافقت -بعد استشارة من يعينهم الأمر- على طلبكم وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وبالمقابلة أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على اتفاقنا ومحبتنا والسلام -خليفة رسول الله على ديار الأندلس هشام".

وفي عهد ملوك الطوائف في الأندلس كانت توفد إلى معاهد غرناطة وأشبيلية وغيرهما بعثات من فرنسا وإيطاليا والأراضي الواطئة لتنهل من الحضارة الإسلامية والعربية وكان



د. سعيد فكرة

طلاب هذه البعثات يعجبون بالحياة العربية وتقاليدھا وثقافتھا حتى أن بعضهم اعتنق الإسلام وفضل البقاء بالأندلس ولم يعد إلى بلاده⁽¹³⁾.

وكانت مدينة طليطلة بعد سقوطها في أيدي المسيحيين سنة 487 هـ المركز الرئيسي لحركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية وقد أنشأ " ريموند " رئيس أساقفتها مكتبا للترجمة، وكان المستعربون من أهل الأندلس أكبر المساهمين في حركة الترجمة ومن أشهرهم "دومونيقوس جونديسا لفي" و"بطرس الفونسي" و"حنا الأشيلي" وغيرهم⁽¹⁴⁾.

وقد ترتب على هذه الحركة وجود ثورة علمية وفكرية هائلة في غرب أوروبا، ذلك لأن المعارف الجديدة التي نقلت من العربية إلى اللاتينية أضاءت أمام الأوروبيين طريق الحياة وبددت ضباب الجهالة الذي حجب عنهم رؤية الحضارة وأيقظتهم من سباتهم العميق ونبهتهم من غفلتهم الطويلة فأقبلوا على دراسة الحضارة الإسلامية بشغف بالغ ونهم شديد⁽¹⁵⁾.

ففي علم الحساب مثلا عرفوا نظام الأعداد الهندية عن العرب وهو النظام الذي تتغير فيه قيمة الرقم بنقله من خانة الآحاد إلى خانة العشرات أو المئات أو الآلاف وما بعدها واستعملوه في عملياتهم الحسابية بدل الأرقام الرومانية التي كانت عملياتها الحسابية تتطلب منهم وقتا طويلا.

ومن المرجح أن البابا " سلفتر " الثاني الذي قضى سنوات عديدة في شمال أسبانيا كان من أوائل الأوروبيين الذين نقلوا نظام الأعداد العربية إلى الغرب هذا بالإضافة إلى تشجيعه على ترجمة كثير من المؤلفات العربية إلى اللاتينية وبخاصة ما يتعلق منها بعلم الجغرافيا.

وقد عرف الأوروبيون علم الجبر -لأول مرة- عن العرب كما نقلوا عنهم علوم الهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء والطب والفلسفة وكثيرا من أنواع فروع المعرفة المختلفة.

وقد ظل العرب يحتفظون بضياعهم وأموالهم ومتاجرهم ومصانعهم في الجزيرة ويزاولون نشاطهم الزراعي والتجاري والصناعي بحرية تامة كما ظلت اللغة العربية شائعة في



الجزيرة وكان ملوك النورماند يحسنون التكلم بها ويطربون لأدبها وشعرها. ويظهر أن استعمالها استمر إلى أواخر القرن التاسع الهجري ويؤيد ذلك شواهد القبور التي عثر عليها علماء الآثار حديثا سواء كانت قبور مسلمين أم قبور مسيحيين.

وقد ترك العرب في جزيرة صقلية كثيرا من عاداتهم وتقاليدهم التي لا تزال باقية حتى الآن كما تركوا ألفاظا عربية كثيرة في اللغة الصقلية والإيطالية. ولا تزال مدن كثيرة في الجزيرة تحمل أسماء عربية. وفي مدينة بالرمو مبيان عظيمان من مباني العرب أحدهما قلعة العزيزة والآخر قصر القبة.

إلى جانب إسبانيا يأتي شعاع صقلية العربية التي خرجت عددا غير قليل من المحدثين والفقهاء والنحويين والأدباء والمؤرخين والجغرافيين والأطباء والفلاسفة، نذكر منهم على سبيل المثال أسد الدين بن الحارث صاحب كتاب الأسديات في الفقه والقاضي ميمون بن عمر وابن حمدي الصقلي الشاعر المبدع والشريف الإدريسي الجغرافي المحقق والحسن بن يحيى المعروف بابن الخزاز صاحب تاريخ صقلية وعيسى بن عبد المنعم وكان من أهل العلم بالهندسة والنجوم والحكمة وأبو عبد الله الصقلي الفيلسوف وغيرهم كثير. (16)

وهذه قد أنشأ العرب في مدينة بالرمو عاصمة صقلية أول مدرسة للطب في أوروبا وعن طريقها انتشر الطب في إيطاليا وسائر أرجاء القارة، إذن كانت جزيرة صقلية مركز إشعاع للحضارة الإسلامية العربية أفادت منه أوروبا أعظم الفائدة لأن الجزيرة كانت على صلة وثيقة بالعالم الإسلامي وبخاصة ما يقع على شواطئ البحر المتوسط مثل الشام ومصر وبلاد المغرب وكانت البلاد الإسلامية في العصور الوسطى وطنا عاما للمسلمين لا فرق بين مشرقي ومغربي فلم تكن هناك قيود على انتقال العلماء من بلد إسلامي إلى بلد آخر فكثرت تنقلاتهم وساعد هذا على تبادل الآراء وانتقالها من جهة



د. سعيد فكرة

إلى جهة فلم تكن حضارة المسلمين في صقلية من صنع أهلها وحدهم بل كانت حضارة إسلامية شاملة لتتاجها ونتاج العالم الإسلامي كله ومن هناك ترجمت وتسربت إلى جميع أصقاع أوروبا.

المرحلة الثانية: والتي انطلقت ببداية الوعي العربي الحديث بالغرب، ومدى تأثير البلاد الإسلامية والعربية بالحضارة الغربية في شتى مجالات الحياة العلمية والاختراعات الحديثة وترتيب أنظمة الحكم. وإزاء الغزوات المتكررة على العالم العربي والإسلامي، وقع الاحتكاك بين الحضارتين تأثير وتأثير.

إلى أن جاء القرن الذي ينادي فيه أرباب الديمقراطية العالمية والحريات والحقوق إلى صدام الحضارات وصراعها وعدم الالتقاء.

الخاتمة:

والسؤال الجوهرى هو: ماهي المسؤولية الدينية والأخلاقية للإنسان بكونه صاحب رسالة إزاء وهمية وحقيقة فرضية صراع الحضارات. وهل الواجب هو إيجاد أرضية ثقافية روحية تنعم فيه البشرية في ظل علاقة تواصل حضاري بين الإسلام والغرب أو إيجاد أرضية تزيد التقاطع في فرضية صدام الحضارات. إن العاقل من بني الإنسان هو الذي يختار الأول بكل أدب وشجاعة ويرفض الثاني بكل استهتار وسخرية.

الهوامش

- 1- تاريخ الحروب الصليبية 143./2
- 2- الكامل في التاريخ 228/2 الطبري 266./3
- 3- المدخل إلى علم السياسة الشرعية ص 30 د/ سعيد فكرة .
- 4- لطفى عبد السميع: الإسلام في أسبانيا ص 30.31



إشكالية العلاقة بين الإسلام والغرب

- 5-المقري: نفع الطيب ج.1.ص.298
 - 6-جوت هل: الحضارة العربية ص. 119
 - 7-ابن حوقل: المسالك والممالك ص 78.79.
 - 8-ابن خلكان: وفيات الأعيان ج.1.ص 130.131.
 - 9-ابن خلدون: كتاب العبر ج 4 ص 146.
 - 10- المقري : نفع الطيب ج.1.ص250
 - 11- المدور : الديانات والحضارات ص 67. (4)
 - 12-علي الخربوطلي : العرب والحضارة ص 212.
 - 13-المدور: الديانات والحضارات ص 70.
 - 14-سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطى ص 217.
 - 15-بالنشيا : تاريخ الفكر الأندلسي ص. 563
 - 16-أماري: مكتبة صقلية العربية 427/1 وما بعدها.
- أنظر ابن الأثير : الكامل 53/8. رحلة ابن جبير 331, السلوك لمعرفة دول الملوك: المقرئبي 382/1.